والغرب» نقلا عن تراجم أعيان القرن الثالث عشر للمرحوم أحمد تيمور باشا «إن الشيخ المرصفى قد رأى الفرصة المناسبة ليتعلم فى مدرسة العميان على طريقة بريل اللغة الفرنسية ويتقنها كتابة وقراءة وكلاما» . ويرجح أن الشيخ حسين ربما يكون قدسبق إلى ذلك بعامل نفسى من الغيرة ، إذ رأى مواطنه الشيخ زين المرصفى وزميله فى عضوية المجلس العالى للتعليم وصيفه فى الأزهر يلم ببعض اللغات ويجيد الفرنسية ، فآثر أن يتعلم ذلك اللسان الذى كان يغرب به الشيخ زين المرصفى على شيوخ الأزهر ، ولكننا مع ذلك لم نحس فى كتاب الوسيلة الأدبية الضخم بأى أثر للثقافة الفرنسية وآدائها عند مؤلفها ، بل أحسسنا فى بعض مواضعها أنه قد كان هناك شك يخامره فى أن الأمم الأخرى لها آداب وأشعار كالأدب العرب وشعره . وفضلا عن ذلك فمن المؤكد أنه لو كان الشيخ حسين قد تعمق اللغة الفرنسية حقًا لاستطاع أن يميز بين علوم اللغة المختلفة ، وأن ينزل كلا منها منزلته على ضوء ما استقرت عليه علوم اللغات الأوروبية بما فيها الفرنسية ، فلا ينزل علم البيان وعلم المعانى منزلة علم البديع ، ولا يخص علم البديع بذلك القدر الكبير من العناية التى خصه بها حيث شغل هذا العلم ما يزيد على مائة صفحة من الجزء الثانى من كتابه ، وحيث فصص أوجه البديع تفصيصًا لم يدع مجالا لمستزيد ، وكأنه قد أحصى جميع الأوجه التى تحذلق علماء البديع المتأخرون فى سردها ، والتفريق بينها . مع أنها كلها لا تخرج عن كونها محسنات لفظية عقيمة كانت من الأسباب الرئيسية فى تحويل الأدب العربى كله إلى زخارف خاوية من كل معنى عميق أو إحساس صادق ، وكأنما الأدب قد استحال إلى مجرد زخارف مثل